الأنثروبولوجيا والنزعة الاستعمارية الحديثة

د/ مرقومة منصور

جامعة مستغانم

توطئة:

يعتبر علم الإنسان أو الأنثروبولوجيا علم قديم–حديث في نفس الوقت، فلقد حاول الكثير من العلماء وصف المجتمعات في العصر القديم كما وصفوها في العصر الحديث أيضا، وأن مظاهر الحياة الثقافية والاجتماعية لم تغب عن الساحة البشرية عبر مراحل تواجد الإنسان على وجه المعمورة. لقد كان لحب الإطلاع الذي أبداه اليونان ومن بعدهم الغرب حيال المجتمعات البشرية الأخرى دور هام في ترسيخ الجذور التاريخية لعلم الأنثروبولوجيا (الإثنولوجيا)، وذلك من خلال محاولاتهم تحديد أوجه التشابه والاختلاف بينهم وبين هذه المجتمعات. لقد تم وضع أسس الأنثروبولوجيا كعلم أو كتخصص في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، على الرغم من أن الكثير يعتبر "هيرودوت" (القرن الخامس قبل الميلاد) هو أب التاريخ والأنثروبولوجيا باعتباره أول من قام بوصف ودراسة المجتمعات غير اليونانية وتقاليدها وبالتالي اعتبار الأنثروبولوجيا هي الأقدم بالنسبة للعلوم الإنسانية. "فأعمال العالم هيرودوت (البطل الأسطوري) الذي أسس لعلم التاريخ والجغرافيا المقارنة والإثنولوجيا"[1]، كان لها الدور الهام في ذلك، والخطاب السائد آنذاك، اعتبر المجتمعات غير اليونانية "برابرة".

كما كان للغزو الاستعماري في القرن التاسع عشر دور في التطور التدريجي والنسقي لملاحظة الأجناس البشرية والطوائف (les ethnies)، ووصف عادات وتقاليد الشعوب من طرف الإداريين والعسكريين وبعض الأكاديميين، على اعتبار أنهم اصطدموا بهذه الشعوب التي لا يعرفون عنها شيئا، فكان لزاما عليهم دراستها في أدق تفاصيل حياتها، وهذا قصد السيطرة عليها. كما لا يخف الدور الذي لعبته الدراسات الأنثروبولوجية والإثنولوجية بالنسبة للمستعمر الفرنسي على أرض الجزائر كمثال حي، وكذا أهمية هذا العلم في ما بعد بالنسبة للجزائر المستقلة.

أولا: النشأة والتطور

يربط كثير من الباحثين والمفكرين نشأة علم الإنسان أو الأنثروبولوجيا ووجوده كعلم وتخصص قائم بذاته، بالفترة الاستعمارية

[1] Copans Jean et All, L'anthropologie sciences des sociétés primitives?, éditions E. P. Denoël, Paris, 1971, pp. 18-20.

الحديثة التي غزت فيها الدول الأوروبية بقاع مختلفة من العالم، واكتشفت أيضا مناطق وشعوب لم تكن معروفة، وهذا قصد بسط نفوذها وتوسعة رقعتها الجغرافية من جهة، ومن جهة أخرى استغلال الخيرات الكثيرة والموارد الطبيعية والبشرية المتنوعة لهذه المناطق والبقاع، كما عرفت هذه الفترة بعصر الاستعمار الكلاسيكي، وهو "عصر البحث عن المستعمرات، عن أسواق وعن يد عاملة وعن مواد خام وعن زبائن جدد يشترون صناعات غير متوفرة في أرضهم، والاستعمار هذا لم يكن عسكريا وحسب، إنه لا يدرَّسُ في كتب التاريخ ولا في حوليات الأمم والشعوب والدول، بل كان استعمارا كانت الثقافة بعض أسلحته، وربما السلاح الأمضى...والعلم المحايد البريء لم يكن كذلك باستمرار. فتحت ستار الثقافة برزت مخالب وقرون، برزت نوايا ومخططات، وتحت شعار دراسة الثقافة، ثقافة البلدان المجهولة، ثقافة الشعوب الأخرى، ظهرت نوايا فرض ثقافة الدارس، أو ثقافة السلطة التي ينتمي إليها أو يعمل من أجلها في بعض الأحيان. ومن هنا ظهرت إذاً بوادر التمييز بين ثقافة الإنسان الأبيض وبين سائر الثقافات، ومن هنا ظهرت أيضا مفاهيم المركزية الإثنية، ومفاهيم التماهي الثقافي والتثاقف الخ"[2]. ولقد عمل بعض من الأكاديميين على ترسيخ هذه الأفكار وتقديم التبرير الفلسفي والإيديولوجي عندما أكد على أنه لم يعد بوسعنا الاستمرار في الأوهام التي خلقتها فلسفات التاريخ، من هيجل إلى ما أسماه فوكو "القدر التاريخي المتعالي الذي خُص به الغرب".[3] بل يجب القيام بما يخدم فعليا سياسات الدول المستعمرة وثقافاتها، وليست الأخوة والتشارك البشري والإنسانية سوى أفكار تعرقل تكريس النزعة التوسعية للغرب، وتحط من درجة استعلائه وحب التملك لديه ومن نرجسيته. و"يمكن القول إذن أن الإمبريالية الاستعمارية المعاصرة، تتوافق زمنيا مع الأنثروبولوجيا المعاصرة، فكلتاهما تعودان إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر"[4]. عصر الغزو والسيطرة ونهب الثروات واستعباد الشعوب. "لذلك رأى هذا العلم الإنساني الجديد أن من واجبه دراسة هذه الشعوب وتصنيفها على خرائط وبيانات قبل البدء بعملية تمدينها"[5]، وهي النظرة التبريرية الغربية التي اعتبرت المجتمعات البعيدة مجتمعات متخلفة يجب أن تقاد إلى الحضارة.

ثانيا: تكريس علوم الإنسان للسيطرة على الإنسان:

عرفت الأنثروبولوجيا على العموم تجاذبات كبيرة سواء من حيث النشأة والتأسيس، أو من حيث الدراسات والمواضيع المتناولة، وهذا نظرا للظروف التي مرت بها الجزائر عبر مراحل مختلفة من تاريخها الحديث، بدءا من الفترة

[2] جيرار لكلرك، الأنثروبولوجيا والاستعمار، ترجمة جورج كتورة، ط2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1990، ص، 6-7.

[3] المرجع نفسه ، ص 11.

[4] المرجع نفسه ، ص 12.

[5] المرجع نفسه ص 17.

الاستعمارية أو السنوات الأولى للاستقلال[6]، ووصولا إلى الفترة الراهنة. فلقد أخذت الدراسات الأنثروبولوجية التي أجريت حول الجزائر باعتبارها بلد مستعمَر يجب معرفته معرفة دقيقة، ثلاثة محاور رئيسة اعتمدت في بدايتها على التقارير العسكرية التي صاحبت الهجمات العسكرية، ثم على التقارير الإدارية عندما ترسخت قدم المستعمر في البلاد، وأخيرا على الدراسات الأكاديمية التي كانت تخدم الأغراض الاستعمارية إلا في القليل منها، أو على الأقل فإن الاستعمار ومؤسساته حاولت استغلال ما كان أكاديميا منها، علما أن عددا من الباحثين عملوا في هذه المؤسسات، وبعضهم الآخر كان ضمن المؤسسة العسكرية. حاولت هذه الدراسات جمع أكبر عدد من المعلومات والأدوات حول المجتمع والبيئة والحياة الاقتصادية والاجتماعية والتنظيم السياسي والعسكري والديني. "إنه التكامل بين السياسي والإداري والأكاديمي رغم ما يبدو من تعارض بين مختلف المتخصصين خاصة بين الأنثروبولوجي والإداري".[7]

لقد اعتمدت هذه الدراسات على الوصف الدقيق والمعمق لمختلف جوانب الحياة اليومية للإنسان، وعلى الوصف الجغرافي، كوصف التضاريس، والبيئة، والمدن وتحصيناتها، والأقاليم الزراعية والنباتية... معتمدة على ما يسمى بالمنوغرافيات العسكرية أو الدراسات العينية[8] وجاءت التحقيقات الميدانية مكثفة بشكل مركز منذ السنوات الأولى لدخول الاستعمار. كما تذكر الدراسات أنه بين سنة 1844 و1867 سجلت حوالي 40 مجلدا في التاريخ والجغرافيا، والعلوم الطبية، وعلوم الفيزياء، وعلم الآثار، والقانون، بحيث تضافرت مختلف العلوم لإعطاء لمحة وفية خاصة عن منطقة الأوراس، التي نعت إنسانها بالبربري والمتخلف وبنعوت أخرى[9].

لم تترك هذه الدراسات ميدانا من الميادين إلا وتطرقت إليه بشكل أو بآخر، فالدين (المعتقد السائد، والرمز، والممارسات) كان محلا للبحث والتنقيب، والقانون والعرف، والسلطة المركزية المتمثلة في قوة القبيلة وعصبيتها، والقرابة والزواج والمصاهرة، والملكية الجماعية للأراضي الفلاحية والرعوية وغيرها، كانت في صلب الاهتمام. فالقبيلة كوحدة للتنظيم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، كانت الشغل الشاغل للمستعمر، بحيث خضعت لعمليات التنقيب المستمر، سواء من حيث المدلول الذي يحيل على عدة مفاهيم كما جاء في دراسات أكاديمية لاحقة (جاك بيرك: في مدلول القبيلة في شمال إفريقيا)، أو من حيث مختلف المستويات الخاصة بهذا التنظيم. كما كان للزوايا نصيبها

[6] اعتبرت الأنثروبولوجيا علما استعماريا لا يجب الخوض فيه، وبالتالي منعت من التدريس في الجزائر وهذا إلى سنوات قريبة جدا، أنظر في ذلك كتابنا: الأنثروبولوجيا (علم الإنسان)، المنهج والموضوع، منشورات مخبر حوار الحضارات والتنوع الثقافي وفلسفة السلم، جامعة عبد الحميد بن باديس- مستغانم، الجزائر، 2015. ص، 37.

[7] Philippe Lucas et Jean-claude Vatin, L'Algérie des anthropologues, François Maspero, Paris, 1975. P. 104.

[8] Ibid. pp.74-75.

[9] Ibid. p. 30.

في عملية البحث، وهذا نظرا لارتباط القبيلة بكل هذه التنظيمات والمؤسسات.

ولنستعرض بنوع من الإيجاز بعض الدراسات التي صاحبت هذه الفترة، والتي استفاد منها الاستعمار لتكريس تواجده على أرض الجزائر (تكريس الأنثروبولوجيا لأغراض وإيديولوجيا الاستعمار)[10]. كما جاءت وفي فترات متباينة الكثير من الدراسات التي قدمها في غالبيتها الضباط والعساكر أو الإداريون التابعون للإدارة الاستعمارية، والتي اهتمت كما أشرنا بمختلف مناحي الحياة، منها دراسة كل من "هانوتو و لتورنو" (Hanoteau et Letourneux) حول القبايل والأعراف القبايلية[11] ، التي أصبحت كقانون ومرجعية في معرفة دقائق الأمور التي تجرى في منطقة القبايل التي هي جزء لا يتجزأ من أرض الجزائر وشعبه، وأعطت الصورة الواضحة التي حبذ المستعمر أن يراها عن نفسه، كما خلصت إلى أن العساكر قد قاموا بمهمتهم على أحسن وجه، وأن فترة من فترات الجزائر قد طويت بفضل السيطرة العسكرية على المنطقة. أعمال "إيميل ماسكوري" (E. Masqueray, 1886) بين السنوات 1873 و 1886 خاصة عمله "تشكل الحواضر" ثم ظهرت بعدها الكثير من الدراسات التي اعتبرت أكاديمية علمية، منها أعمال "ر. مونييه" (R. Maunier)، و"إيفون توران"، و " لويس رين" (Louis Rinn)[12]، الأعمال المتأخرة لبعض الباحثين أمثال بورديو، وبيرك، وجيرمان تيون، وفاني كولونا، وبعض الأعمال التي أجريت حول المغرب الأقصى وكانت على ارتباط وثيق بالجزائر، أعمال روبير مونتاني، وإرنست غلنير، وكليفورد غيرتز، وإدموند دوتي وغيرهم.

تميزت هذه الفترة بالدراسات ذات المواضيع المتعددة والتي كانت تحاول فهم حقيقة التركيبة المجتمعية للجزائر، والوصول إلى بنيته الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والدينية والسياسية والرمزية، الخفية منها أو الظاهرة. يعني ذلك أن الدراسات الأنثروبولوجية التي تعتمد على الملاحظة قدمت خدمات جليلة للاستعمار في التعرف على المجتمع الذي يريد السيطرة عليه، وبالتالي إحكام قبضته عليه بنوع من السهولة لم تكن لتتأتى لولا هذه الدراسات.

ثالثا: الاستعمار بين تبرير الغزو وإذلال العلم.

إن سعي الاستعمار الحديث للسيطرة على الشعوب لم يكن بالقوة العسكرية والسلاح المدمر، بل كان أيضا بالهيمنة الثقافية والعمل على إعطاء التبريرات الوافية حول إبادة هذه الشعوب واستغلال خيراتها الطبيعية والبشرية، ولقد كرست الجهود التي توغلت إلى الخصوصيات الثقافية للوقوف على مكامن القوة والضعف عن طريق الملاحظة الدقيقة والمتأنية للوصول إلى

[10] Ibid. pp. 187-189.

[11] **Adolphe Hanoteau, Aristide Horace Letourneux : La Kabylie et les coutumes kabyles, A . Challamel, 1893. Tome 1-3.**

[12] Rinn Louis, Marabouts et khouans, Etudes sur l'Islam en Algérie. Adolphe Jordan, 1884.

نتائج جد مهمة، يقول أحد الباحثين "ريفي" (Rivet) في ذلك: " لا استعمار جيد بدون إثنولوجيا محكمة...ولا يمكن أن يتم الاستعمار بالتجريب حين تساعد أضواء الملاحظة العلمية على إتمامه وبمعدل نجاح كبير"[13]. إن وصف الشعوب بالتخلف والانحطاط، وتكريس النظرة المتعالية وتمجيد المركزية العرقية والتفوق الحضاري المزعوم، صاحبه في ذات الوقت تبرير التواجد الميداني والسيطرة العسكرية التي كانت زعما بأنها ستقود الشعوب إلى التقدم والتحضر والمدنية من جهة، ومن جهة أخرى صاحبه أيضا إذلال وامتهان لعلم الإنسان الذي كان من المفترض أن يكون جسرا لتواصل الشعوب والتبادل الثقافي بينها، " لم يتعرض علم من العلوم - باستثناء علم القانون وروح القانون- للتشويه والذل وسوء الاستخدام من قبل التيارت السياسية التي جاء بها الحكم النازي للعالم، كعلم الإنسان وإبداعه. فقد جعل من العلم الذي قام أصلا للمساهمة الفعالة في تفاهم الثقافات والشعوب، واحدا من أمضى أسلحة الحرب العدوانية، جعل من هذا العلم أداة مسمومة لارتكاب الجرائم السياسية والإنسانية من خلال قسر النظرية وإقحامها في الزعم أن بعض الشعوب ليست إخوة للبشر، بل كائنات من أنواع منحطة."[14] إنه لا يمكننا الوصول إلى كثير من الحقائق العلمية حول سياسات الاستعمار وإيديولوجياته إلا من خلال الممارسات التي كانت تتناقض مع هذه السياسات والمزاعم، فبمقابل التحضر والمدنية كانت الإبادة، وبمقابل التنمية والتقدم كان مزيدا من الفقر والتشرد، وبمقابل العلم والمعرفة جاء الجهل والحرمان، وكلها لتطبع وصمة العار على جبين الزاعم بنقل الحضارة إلى الشعوب. "إن التناقض الأساسي كان دائما (وما زال) في زعم الاستعمار، إنه يعلّم، فيما هو بالفعل يلجم العلم، يزعم نقل التصنيع، فيما هو يقوم فعليا باستيراد أو تصدير المواد الأولية، زعم تحقيق تماثل، فيما مارس سياسة إقامة مؤسسة عرقية أو مؤسسات تمارس الاضطهاد (إما بقانون: سياسة التمييز العنصري، أو بفعل الممارسة اليومية".[15] إن المأزق الذي وصلت إليه الأنثروبولوجيا كعلم يهتم بدراسة الشعوب البعيدة والبدائية نتيجة استهلاك هذه الشعوب وثقافاتها ونفاذ حقولها الدراسية، صاحبه مأزق تخلص الأنثروبولوجيين من تلك الوصمة التي لحقتهم في تبرير خدمتهم للاستعمار، حيث ظل هذا العلم يدور في كنف الممارسات الاستعمارية وإن حاول البعض التملص من هذا الارتباط دون جدوى، وهذا بحكم أن محاولة التخلص من تبعية العالِم للسياسي لم تكن إلا في النهاية المحتومة للاستعمار[16]. إن الطرح الذي يخشى منه المستعمر حيال الشعوب التي سيطر عليها ولا يزال، هي تلك النظرة التي تجعل من هذه الشعوب والمجتمعات على قدم

[13] Philippe Lucas et Jean-claude Vatin, op. cit. p. 107.
[14] بوليوس ليبس، أصل الأشياء: بدايات الثقافة الإنسانية، ترجمة كامل إسماعيل، دار المدى، ط2، 2006، ص، 6.

[15] جيرار لكلرك، الأنثروبولوجيا والاستعمار، مرجع سابق، ص، 189-190.
[16] أنظر في ذلك: المرجع نفسه، ص 193 وما يليها.

المساواة بينها وبين المجتمعات التي تزعم قيادتها نحو الحضارة، وهذا باعتبار أن المكتشفين الأوائل الذين كان لهم الفضل في إرساء أسس كثير من العلوم والمخترعات رغم كونهم بدائيين، إنما هم إخوة في الإنسانية وأن ثقافاتهم التي تنعت بالمتدنية إنما هي تراث مشترك بين جميع البشر، وأن العلم جاء لخدمة الجميع وليس لتفضيل شعب عن شعب نتيجة للون بشرته أو لغته أو انتمائه القومي أو الديني، واعتبار أن الجميع أيضا يمكن أن يساهم في إسعاد البشرية بطريقته الخاصة، وعلى عالم الأجناس البشرية أن يضع علمه في خدمة هذه الأهداف النبيلة وليس في تفرقة الشعوب[17]. إنها في رأيينا عملية مهمة في تخليص الأنثروبولوجيا من الهيمنة الإيديولوجية والسياسة الاستعمارية، وانتشالها من مآزقها التي وجدت نفسها فيها، والارتفاع بالعلم إلى خدمة التثاقف الحقيقي والفعلي بين مختلف الشعوب.

[17] أنظر في ذلك أيضا: يوليوس ليبس، أصل الأشياء، مرجع سابق، ص 218.